ولم تكن الرؤيا المشرقة في هذه القصيدة مناقضة تماما للصور التي جاءت فيما سبقها من قصائد ، بل يستطيع القارىء ان يجد بذورها في تلك القصائد . ولم تكن ولادة البطل العربي فيها أمرا مفاجئا او مستحيلا فان الشاعر منذ قصيدة « الام الحزينة » وجد في الانسان الفلسطيني ظاهرة صمود وتجسيدا لامل في العودة . وكانت الحركة الفدائية تأكيدا لوجود نبض الحياة في العروق . لذلك فان كان العضو الفلسطيني في الجسم العربي ما زال حيا ، فان الاعضاء جميعا لا بد أن تكون حية وان اصابها حينا بعض الخمول . وقد كان ذلك ما اكدته حرب تشرين الاول في صور البطولات الرائعة التي شهدتها الارض العربية ، الامر الذي اعاد للانسان العربي كرامته المفقودة واكد للعالم اجمع ان الانسان العربي ما زال فاعلا في التاريخ والحضارة . وكان الشاعر قد انتهى من كتابة القصيدة عدة اشهر قبل حرب تشرين ولم يكن يعرف سر تفاؤله ، ثم كانت الحرب تأكيدا لصدق الرؤيا . وفي ذلك يقول الشاعر في المقدمة التي كتبها مؤخرا للقصيدة : « وليس في القصيدة تعبد لبطل فرد ، بل نموذج لامثاله من الابطال المناضلين الذين امتزجت دماؤهم واتحدت في الحرب الاخيرة فكانت شهادة دامغة : ان الظاهرة التي تدعى عادة بالعالم العربي تنطوي على كيان اصيل لامة واحدة ذات حدود واحدة في الصراع مع الدخيل والغاصب .

عاني خليل حاوي قضية الموت والانبعاث في « الرعد الجريح » بمستوياتها المختلفة : الذاتي والانساني والحضاري . وكان في السنوات العشر الاخيرة ما بين عام ١٩٦٢ وعام ١٩٧٢ يعيش تجربة موت الانسان والحضارة في وجوهها ومستوياتها المختلفة واحس بعجز الشاعر ، وهو الرائد والنبي والمبدع ، عن تحويل صور الجمود وازاحة الظلام المتحجر . فبدا شعور ببرود الشيخوخة وعجزها يتسلل الى نفسه ليواجه صورة مغايرة متجذرة في اعماقه هي صورة الطفل التي لا يمكن ان تفارق ذات اي شاعر اصيل . فالطفل في براءته ودهشته امام الاشياء ، وايمانه بحقيقةمايمثله لاوعيه من صور ، وتوهج شعوره ، وفعله من حيث هو وحدة في الوجود مثل الشاعر في خصائصه هذه جميعا . ان الشاعر والطفل هما عود الى الحياة البدائية حيث كان الكون وحدة متكاملة يخاطب الانسان الالهة وعناصر الطبيعة ويعيش في وحدة صوفية لا تعرف المتناقضات ولا يفصل فيها بين الخير والشر ، فيتحقق الفردوس ويعود الانسان الى ما قبل السقوط . لذلك فان احساس الشاعر بالشيخوخة والعجز يتخذ طبيعة مأساوية حادة تفوق الى حد كبير احساس الانسان العادي بهما . من هنا تجسد الزمن موجا داخليا يتكسر في صدر الشاعر على سور عتيق تداعت جدرانه ، وتجسد مبردا اعمى يشوه جوهرة خالصة هي ذات الشاعر ، يقول :

كانت الغصات موجا
يتلوى ويدوي
في مضيق
يزحم الموج الذي يرتد
عن سور عتيق
كان في الغصات
ينحل تناعي
عن شروخ ترتعي
جدران جسم متداعي